

مسألة الثقافة في الجزائر بين الهوية والاندماج

يسعد شريف صحراوي

أستاذ مساعد (أ) بكلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية

جامعة الجزائر - 3 -

ملخص:

تتناول هذه الدراسة مسألة العلاقة بين الثقافة والهوية وما يترتب عنهما من رهانات على مستوى السياسة الثقافية المنتهجة في الجزائر. يحتاج الامر العودة الى توضيح معنى المصطلحات والولوج في تفاصيلها واختلافاتها ودلالاتها بسبب ما تحمله من تصورات تداخلت فيها اعتبارات عدة بالنظر الى الابعاد التاريخية والفلسفية التي تأثرت بها المجتمعات (1). ومن ثمة يمكن التساؤل عن مقومات وأسس الثقافة الجزائرية من حيث ما هو موروث كالدين والتاريخ واللغة وما هو مكتسب كالنون والآداب (2). ان هذه المسائل هي موضوع خطاب وتصورات سايرت المراحل التاريخية وتبلورت شيئا فشيئا في سياسات ثقافية تسعى الى تحقيق التكامل الهوياتي وتحقيق الانسجام الثقافي في الجزائر بين الماضي والحاضر. ما مدى نجاعة هذه السياسة الثقافية في تحقيق هذا الدور؟ (3).

الكلمات الدالة:

الجزائر. الثقافة. الهوية. السياسة الثقافية. التكامل الثقافي.

Résumé

Cette contribution traite de la relation entre la culture et l'identité et les enjeux qui en découlent au niveau de la politique culturelle menée en Algérie. Il est nécessaire, pour cela, de revenir à la clarification de la signification des notions de culture et d'identité afin de préciser leurs contenus, en raison de ce qu'elles comportent comme perceptions liées à des dimensions historiques et philosophiques que peut connaître toute

société (1). Il est donc possible de s'interroger sur les fondements et les éléments constitutifs de la culture algérienne dans ce qu'elle a comme héritage comme la religion, l'histoire et la langue et ce qui est considéré comme acquis en tant qu'art et littérature (2). Ces questions sont l'objet d'un discours/ou de discours et de perceptions ayant accompagné les différentes étapes historiques et se sont cristallisées progressivement dans les politiques culturelles visant à réaliser la complémentarité et l'harmonie identitaire et culturelle en Algérie entre le passé et le présent. Quelle efficience accorder à cette politique culturelle dans la concrétisation de ce rôle ?

Mots-Clefs :

Algérie -Culture - Identité -Politique Culturelle-Intégration Culturel.

Summray:

This paper deals with the relationship between culture and identity and issues arising at the cultural policy in Algeria. It is necessary to return to the clarification of the meaning of notions of culture and identity in order to clarify their contents, because they include perceptions related to historical and philosophical dimensions that any society. It is therefore possible to question the fundamentals and foundations of Algerian culture in terms of what is inherited such as religion, history, language and what is acquired as arts and literature .These issues are the subject of a discourse and perceptions that have accompanied the different historical stages and have gradually crystallized in cultural policies aimed to achieve complementarity, identity and cultural harmony in Algeria between the past and the present. How effective is this cultural policy in achieving this role?

Key words :

Algeria - Culture - Identity - Cultural Policies - Cultural Integration.

مقدمة:

تتطلق هذه الدراسة من التعريف الكلاسيكي الشهير للثقافة الذي أطلقه " ادوارد برنت تايلور " سنة 1871 في كتابه " الثقافة البدائية" بقوله « الثقافة بمعناها الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع »¹، كما أن الكثير من الدول تعرف مجتمعاتها تنوعا ثقافيا مرده إلى التعدد الإثني والعنصري لسكانها أي أنها تتشكل من "مجتمعات محلية" مختلفة ، تعمل تلك الدول وفق سياسات ثقافية معينة على احتواء هذا التنوع إثراء، ونشر الانسجام والتكامل بين أعضائه لما في ذلك من قوة للبلد وحماية "للأمن الثقافي" للمجموعة الوطنية وتعزيز لهوية الأمة الثقافية (المجتمع الأمريكي كنموذج)، بالنسبة للجزائر فإن هذه الشروط (التنوع والتعدد الثقافي) كلها متوفرة بدرجة معينة لكن الإشكالية التي تطرح هنا هي :

هل عولجت مشكلة الثقافة والهوية في الجزائر منذ الاستقلال وفق سياسات تعمل على

تحقيق تكامل ثقافي للمجتمع ؟

سنسعى من خلال هذه الدراسة وفق منهج تاريخي وتحليلي لمضامين أهم الوثائق الرسمية للدولة الجزائرية، إلى محاولة الإحاطة بزوايا الموضوع من خلال الإجابة عن الأسئلة الجزئية التالية : ما هي العلاقة بين الثقافة والهوية ؟ وما المقصود بالتكامل الثقافي والسياسات الثقافية ؟ ما هي أسس وبنية الثقافة الجزائرية ؟ لماذا ارتبطت مشكلة الهوية بالعنف في الجزائر ؟ ما هي المبادئ التي انبنت عليها السياسات الثقافية المنتهجة في الجزائر ؟ ما هي آثارها ؟ وهل عملت فعلا على إرساء تكامل ثقافي بين مختلف الأبعاد المكونة لثقافة وهوية المجتمع الجزائري ؟

¹ - محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته . (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1991)، ص 50.

نقلا عن كتاب المؤلف " the primitive culture " مترجما للفرنسية :

. (1968, E.F.Maspero, paris) . **Une Théorie Scientifique de la culture**. Édouard Brent Taylor

- أولا: المفاهيم والمصطلحات:

1- الثقافة:

من أهم المواضيع التي درسها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والفلسفة ، لذلك تعددت التعاريف تبعا لتعدد الحقول المعرفية التي تناولت الموضوع. حيث قام اثنان من علماء الاجتماع هما " الفريد كروبر " و " كلايدكلوكهون " بمراجعة الدلالات المتنوعة لكلمة " ثقافة " وقرينتها " حضارة " فعثروا على 164 تعريفا مما يدل على أنها إحدى الكلمات الأكثر تعقيدا، لأنها تحمل معاني كثيرة تتغير مع مرور الزمن كالفن والحضارة وتهذيب النفس والمنتجات الثقافية والحياة الكلية لمجموعة معينة ، فهي تغطي مجالات واسعة من الأفكار والموضوعات .

- لغويا:

كلمة " ثقافة " تقابلها كلمة culture، وأصل الكلمة لاتيني وهي تعني "الزراعة" و"الاستنبات"¹، أما في اللغة العربية فهي من مصدر الفعل الثلاثي " ثقف " أي صار حاذقا، و"ثقفه بالرمح" أي طعنه، ويقال "ثقف الرمح" أي سواه وقومه، و"ثقف الولد" أي هذبه وجعله مهذبا.²

- اصطلاحا:

عرفها " كلايدكلوكهون " بقوله : « نقصد بالثقافة جميع مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ بما في ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية وهي توجد في أي وقت كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة »³.

أما الانثروبولوجي " مالينوفسكي "،فالثقافة عنده « تشمل الحرف الموروثة والسلع والعمليات الفنية والأفكار والعادات والقيم ...إن الثقافة هي في حقيقة الأمر كل ما يتعلق بعملية تنظيم البشر في جماعات دائمة »¹.

¹ - معجم القاموس السياسي، (لبنان : دار الكتب العلمية، 2004)، ص 98 .

² - ابن منظور ، لسان العرب، المجلد الثاني . (القاهرة : دار المعارف، د س ط) ، ص 1276 .

³ محمد السويدي، مرجع سابق، ص 48 .

" رالف لنتون " يرى أن المجتمع والثقافة يعتمد كل منهما على الآخر اعتمادا متبادلا بحيث لا يستطيع الواحد منهما أن يشكل كيانا كاملا دون الآخر وهي حسب كل تتداخل أجزاءه تداخلا وثيقا .

بالنسبة للفيلسوف الاجتماعي الجزائري مالك بن نبي في مؤلفه " مشكلة الثقافة " وبعد أن يناقش تعاريف المدرسة الغربية السابق ذكرها ويقابلها بتعاريف رواد المدرسة الماركسية مثل "كونستانتينوف " و " ماونتسيتونغ " اللذان يعتقدان أن «حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي ومستقل عن إرادة الناس أما حياة المجتمع العقلية culture أي مجموعة الأفكار الاجتماعية والنظريات والأديان... فهي كلها انعكاس لهذا الواقع الموضوعي»²، فيرى أن الثقافة لا تعني الأفكار فحسب وإنما أسلوب الحياة في مجتمع معين ، وثقافة أي مجتمع من المجتمعات هي انعكاس للواقع الموضوعي لذلك المجتمع بكل ما فيه من ماديات ومعنويات ، « فالثقافة علاقة متبادلة هي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع كما يحدد أسلوب الحياة سلوك الفرد »³. وهي جملة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته ، كما يرى من جهة أخرى أنه ليس ثمة تاريخ بلا ثقافة إذ الشعب الذي يفقد ثقافته يفقد تاريخه .

من جهته " الفريد فيبر " مؤسس علم الاجتماع الثقافي وهو الشقيق الأصغر لعالم الاجتماع الألماني " ماكس فيبر " فقد ميز بين الثقافة و الحضارة ، الحضارة تشمل المعرفة الوضعية والعلم والتكنولوجيا ، معلومات يمكن تمريرها من جيل إلى جيل وتتمتع بدرجة عالية من الدقة والضبط أي أنها (عقلية - علمية) تنتشر من مجتمع إلى آخر ، أما الثقافة فهي أشكال روحية تقوم على العواطف النفسية مثل الدين وهي بخلاف الحضارة غير قابلة للانتشار ، وهي حقيقة أصلية خاصة بشعب معين في فترة زمنية من تطوره التاريخي وهي مظهر من مظاهر وحدته⁴ . يمكن القول إذن أن الحضارة هي الجانب المادي للثقافة .

¹ - نفس المرجع ، ص 50 .

² - مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، (سوريا : دمشق ، دار الفكر ، ط4 ، 2000) ، ص 32 .

³ - نفس المرجع ، ص 43 .

⁴ - محمد السويدي، مرجع سابق، ص 55.

يبقى أشهر تعريف كلاسيكي للثقافة هو الذي قدمه " ادوارد برنت تايلور " في كتابه "الثقافة البدائية " (primitive culture) بقوله : « الثقافة أو الحضارة بمعناها الإثنوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاقيات والقانون والعادات وغير ذلك من القدرات والسلوك الشائع الاستخدام الذي يكتسبه الإنسان كعضو في المجتمع »¹.

هذا التعريف الجامع يحدد مكونات الثقافة كما يلي :

- العناصر المعرفية: أي المعارف التي تفسر العالم، ولها تطبيقات وأهداف عملية في حياة الإنسان وتفاعله مع بيئته الاجتماعية والطبيعية.

-المعتقدات: وهي الجوانب الغيبية من المعرفة والتي لا تخضع للإثبات التجريبي.

- القيم والمعايير: وهي المبادئ والمعايير والأحكام والاختيارات المتفق عليها من خلال التجربة الإنسانية.

وبما أن " السوسيولوجيا " هي العلم الذي يبحث في الأبعاد الاجتماعية للحياة الإنسانية فإن دراسة الثقافة ضمن حدود السوسيولوجيا تعني البحث في العوامل الاجتماعية والثقافية معا وعليه فان خصائص الثقافة عند السوسيولوجيين هي : التميز والاستقلال الثقافي ، والاستمرار والانتقال من جيل لآخر عن طريق التعلم ، والاكساب ، والتراكم ، والتكيف والتعقيد ، والانتشار والثبات والتغير والتكامل².

2 -الهوية:

الهوية هي إحدى الإشكالات التي واجهها الفكر المعاصر، وهي مرتبطة بحقوق الأقليات والإثنيات والطوائف حيث تطرح ما يسمى بمشكلة الهوية أو أزمة الهوية، وهذا المفهوم مثل مفهوم " الثقافة " يثير الخلاف والجدل بين الباحثين إذ لكل مرجعيته وهو مصطلح يتحدد بناء على الدلالة اللغوية، الفلسفية ، السوسيولوجية والتاريخية كذلك .

¹ - دلال ملحد ستيّة ، التغير الاجتماعي والثقافي .(الاردين : دار وائل للنشر والتوزيع ، ط 1، 2003)، ص 228 .

² - ديفدانجلز،جونهيوسون ، مدخل الى سوسيولوجيا الثقافة .ترجمة لما نصير ،(لبنان : بيروت ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، ط 1، 2013)، ص 17 .

- لغويا:

هوية identity, identité مستمدة من الكلمة اللاتينية identitas أو identitis وتعني " نفسه أو عينه " هي مجموعة الصفات والمميزات التي تجعل من شخص ما متعينا ، هي الميزة الثابتة في الذات¹.

في اللغة العربية، المصدر من " هو " ضمير المفرد الغائب المعرف ب " ال " التعريف وفي لسان العرب لابن منظور، الهوية من هو يهوى هوة والهوية تصغير لهوة وقيل الهوية بئر بعيدة عن الهواة².

في المنطق يعتبر موضوع الهوية من صميم الدراسات الفلسفية، الهوية هي مبدأ الفكر والتفكير ويعني تطابق الشيء مع ذاته وعناصره رغم التحول والتغير الذي يطرأ عليه، ويتم التعبير عنه بصيغة رياضية $A = A$. فهي تسعى لتوضيح معالم الشيء الذاتية³.

- اصطلاحا:

تعني الهوية « اتفاق جماعة معينة على أنها مجموعة متجانسة اثنيا ، أو محليا ، مهنيا دينيا أو قوميا، وهي الوعي بالذات والمصير التاريخي الواحد من موقع الحيز المادي والروحي ويمكن أن تحدد توجهات الناس وأهدافهم وتدفعهم إلى العمل معا في تثبيت وجودهم والمحافظة على منجزاتهم وتحسين وضعهم في التاريخ »⁴ ، فهي بشكل عام تتعلق بفهم الناس وتصورهم لأنفسهم ولما يعتقدون انه مهم في حياتهم ،انطلاقا من خصائص محددة مثل الجنس والطبقة أو العرق والإثنية أو الثقافة واللغة والدين

¹ - ناصر عبد اللاوي، الهوية التواصلية في تفكير هابرماس. (لبنان : دار الفارابي ، 2012)، ص 45.

² - ابن منظور، لسان العرب. المجلد السادس . (القاهرة : دار المعارف د س ط)، ص 4929 .

³ - بغورة الزاوي ، الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد والتأسيس (في التاريخ والهوية والعنف) . (الجزائر : دار القصة للنشر ، 2003)، ص 122 .

⁴ - فارس لونيس . "سياسة الهوية لدى الأحزاب السياسية في الجزائر 1989-2012 " . (رسالة ماجستير ، علوم سياسية وعلاقات دولية، جامعة الطاهر مولاي ، سعيدة)، 2012 ، ص 19 .

والهوية كذلك تعكس تماثلا واختلافا في آن واحد ¹ :

1 - التماثل مع أشخاص معينين آخرين، بمعنى هوية جماعية.

2 - التفرد الشخصي عن الآخرين ، بمعنى هوية فردية .

3 - التكامل الثقافي:

يقصد بالتكامل: الترابط والتلاحم والاتساق والالتزان و التكيف والأثر المتبادل. أما التكامل الثقافي فمعناه التوافق المتبادل بين سمات ثقافية متعارضة لتكون نسقا ثقافيا منسجما ،ويجمع كثيرا من الباحثين في الثقافة أن الثقافة تميل دائما إلى الانتظام والتكامل ،هذا الأخير يتحقق جزئيا بالمناقشة الصريحة المباشرة للمفاهيم والفرضيات والآمال المسيطرة على المجتمع في تقاليده الدينية وتفكيره الدنيوي وقانونه الأخلاقي ومسلّماته .

عند " رالف لينتون " و " سوروكين " الثقافة نسق تعتمد أجزاؤه على بعضها ، تتربط وتتكامل إلى مدى لا يسمح بفهم أي منها بمعزل عن الأجزاء الأخرى ، مع احترام الضوابط القانونية والعرفية المعمول بها في المجتمع نفسه كما أن التكامل يبقى في الأخير أمرا نسبيا ² .

وتؤكد الباحثة " روث بينيدكت " في كتابها " الأنماط الثقافية " على دور العوامل السيكولوجية في تحقيق التكامل الثقافي بقولها : « كل ثقافة مميزة ومتفردة في التكامل بين أجزائها المتداخلة والتي تتشابه في الأفكار الرئيسية والروح العامة لهذه الثقافة فالدين والأسرة والحياة والنظم الاقتصادية والسياسية تتوافق معا مكونة هذا الكيان المتفرد والترتيب المتكامل ... هذا التكامل يرجع إلى عوامل سيكولوجية اكتسبت معناها من الروح العامة للشعب » ³ .

على الصعيد السياسي يبقى للتكامل الثقافي دورا كبيرا في حفظ الوطن من التفكك ومن عدم الاستقلال وتحقيق الوحدة السياسية والثقافية للأمة.

¹ - نفس المرجع ، ص ص 21-23.

² - محمد السويدي ، مرجع سابق ، ص ص 97-103.

³ - فاروق احمد مصطفى،عباسابراهيم،الانثروبولوجيا الثقافية.(القاهرة: دار المعرفة الجامعية ،2007، ص 50 .

4- السياسة الثقافية :

يعرف " جيمس اندرسون " السياسة العامة بأنها « برنامج عمل هادف يعقبه أداء فردي أو جماعي في التصدي لمشكلة أو لمواجهة قضية أو موضوع »¹، وتضعها الأجهزة الحكومية ذات الصلاحيات المخولة لذلك في حدود القانون ، إنها القرارات الحكومية التي تحدد وترسم حياة المواطنين ، كيف ترسم الأهداف وكيف يمكن تنفيذها في كل القطاعات كالاقتصاد والتعليم والضريبة والجبابة والسكن والتشغيل والفلاحة والسياحة والبيئة وتبقى الثقافة احد أهم تلك القطاعات العلاقة بين السياسة والثقافة هي علاقة تفاعلية كما أن السياسة ممارسة وأفكارا هي جزء من ثقافة المجتمع وعليه فالسياسة الثقافية هي جزء من السياسة العامة للدولة ، كما أن التحولات السياسية الكبرى في المجتمعات تحتاج دوما إلى صياغة سياسات ثقافية جديدة تتلاءم مع عملية التحول .

ويجب التنويه إلى أن مفهوم " السياسة الثقافية " حديث نسبيا بدأ مع تبني "اليونيسكو" لهذا المفهوم الذي تطور مع الزمن ليواكب تطور مفهوم الثقافة مما جعل مجاله اليوم يشمل إلى جانب الفنون والآداب ، أنماط الحياة وأساليب العيش المشترك ومنظومة القيم والموروثات والمعتقدات .

فحسب مرصد السياسات الثقافية التابع لمنظمة اليونسكو ، تهدف السياسات الثقافية إلى صون التنوع الثقافي وتعزيزه بشتى الإشكال والحفاظ على التراث الثقافي وتدعيم التعددية الثقافية وحوار الثقافات محليا ودوليا²، نرى بوضوح أن السياسة الثقافية هي مفهوم يستمد معناه من كلمة "سياسة " التي تعني منظومة من الغايات والأهداف والوسائل تضعها مجموعة وتنفذها سلطة ، وهي - السياسة الثقافية- جملة من الغايات ذات المدى البعيد ومن الأهداف ذات المدى المتوسط (بمعنا التخطيط الثقافي) ومن وسائل وأشخاص واعتمادات مالية وترتيبات قانونية (بمعنى

¹ - جيمس اندرسون، صنع السياسة العامة. ترجمة الدكتور عامر الكبيسي، (الاردن : دار المسيرة للنشر والتوزيع ، د س ط)، ص 15 .

² - "السياسات الثقافية " منشور خاص باحتفالات الذكرى الستين لتأسيس اليونسكو ، الأسبوع السابع والأربعون، تاريخ: 31 جويلية إلى 6 أوت 2006 .

التشريع الثقافي)، الغايات تحددتها النخبة والأهداف يضعها الخبراء والوسائل هي شأن الإداريين ويجب أن تتضمن دائما أدوات لتقييم النتائج من أجل إعادة النظر في الغايات والأهداف والأدوات¹.

بصيغة أخرى يمكن القول أن السياسة الثقافية هي جملة التشريعات القانونية والإجراءات والبرامج التنشيطية والتخطيط والممارسات التنفيذية التي تجند طاقات وقوى سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية بهدف إدارة سوق الموارد والخيرات الثقافية وبناء ملامح من المشهد الثقافي والتأثير في ابرز التفاصيل الفنية والأدبية لدى أوسع قطاعات الجمهور بما يستحث توجهاتها الاستهلاكية ويصوغ أدواقها ومعاييرها .

ثانيا: الثقافة الجزائرية، البنية الأسس والمقومات

الثقافة الجزائرية - كغيرها من الثقافات العالمية - لها بنى وأسس متنوعة تعكس التطورات والتأثيرات التي تلقاها المجتمع عبر مساره التاريخي، كما أن الشخصية الوطنية قد تشكلت بناء على تلك الأسس التي أعطت للمجتمع هويته وثقافته المتميزة .

1- بنية الثقافة الجزائرية :

يصنف الانتروبولوجيون الثقافة الجزائرية إلى مجالين كبيرين :

أ- **المجال التقليدي:** تمثله الثقافة الموروثة عن الماضي بمعنى " التراث " وتتكون من:

- الدين: ويشمل العبادات والمعتقدات والقواعد العامة التي تحكم السلوك الاجتماعي.

- التراث المكتوب: من شعر وعلوم دين ولغة و تصوف و تاريخ ورحلات.

- تراث مادي: فن معماري قصور مساجد مدن وزخرفة...صناعة يدوية فخارية نحاس جلود

حلي وطرز....

¹ - سفيان لوصيف . " السياسات الثقافية بين نظرية المفهوم والفعل المؤسسياتي " .مجلة العلوم الاجتماعية، العدد

بتاريخ 15 جويلية 2012 .

-تراث رمزي: من شعر ونثر وحكايات، أمثال لهجات فلكلور من رقص وغناء.

ب-المجال الحديث: يتشكل من القطاعات التي تبلورت نتيجة الاحتكاك بالحضارة العصرية وبالأخص الغربية وهي المسرح والسينما والفنون التشكيلية القصة والرواية والأوبرا ومختلف الإنتاج المعرفي الأكاديمي .

ويسجل المهتمون بهذا المجال اندثار الكثير من العناصر بالأخص الشفهية منها وذلك راجع لتطور الكتابة والإعلام إذ تغيرت الكثير من الوظائف مثلما حدث تفاعل بين التقليدي والحديث على اعتبار أن الأول يمثل "الجامد" والثاني يمثل "المتحرك"¹.

2 - أسس ومقومات الثقافة الجزائرية :

يمكن القول أن الثقافة الجزائرية لها أسسها الحضارية والتاريخية منذ القدم - إذ الثقافة لا تنفصل عن التاريخ كما يرى المفكر مالك بن نبي - فهي نتاج تجربة مجتمعتها عبر الزمن مع تأثير الموقع الجغرافي الاستراتيجي (القرب من أوربا ، معبر نحو الشرق ، وإفريقيا)، قرون من الاحتكاك والتجارة والحروب جعل من الجزائر ملتقى ثقافات ولغات ، تلقت الكثير من المؤثرات الثقافية (اكسبها ذلك تعقيدا ثراء وتعددا)، ولكن أكثر تلك التجارب تأثيرا هي : -الفتوحات الإسلامية -الاستعمار الفرنسي - ثورة 1 نوفمبر 1954.

ومن خلال المسار التاريخي الطويل تشكل الوجدان الثقافي للمجتمع الجزائري علما لأسس التالية:

أ- الحيز الجغرافي: الذي نمت وتطورت فوقه الجزائر منذ الدولة النوميديّة مرورا بمجيء الإسلام وصولا إلى ثورة أول نوفمبر 1954 وهو الانتماء للمغرب العربي والمنطقة العربية وشمال إفريقيا وقارة إفريقيا²، ورد في دستور 1963 «...وهي جزء لا يتجزأ من المغرب العربي والعالم

¹ - انظر موقع الباحث الانتروبولوجي سليم درنوني <http://www.dernounisalime.com>

² - "مشروع السياسة الثقافية للجزائر" تحت إشراف مجموع العمل حول السياسة الثقافية بالجزائر فيفري 2013

info@alger-culture.comالموقع :

العربي وإفريقيا»¹ ونجد في دستور 1989 «إن الجزائر أرض الإسلام وجزء لا يتجزأ من المغرب العربي الكبير وأرض عربية وبلاد متوسطية»².

ب- الدين الإسلامي: وهو المقوم الأساسي للهوية الجزائرية والأساس المشترك بين باقي المقومات، حيث نص بيان أول نوفمبر 1954 على «إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن المبادئ الإسلامية»³، وهو ما تؤكد في دساتير الجزائر على التوالي بعد الاستقلال.

ج- اللغة العربية: باعتبارها لغة الإسلام وحضارته (حضت بنفوذ كونها لغة القرآن) عند الاستقلال وفي مؤتمر طرابلس 1962 ورد أنه: «ستعمل الثقافة الوطنية في المقام الأول على أن ترد للغة العربية التي تعبر عن قيمنا الثقافية اعتبارها و فاعليتها كلغة حضارة»⁴.

د- الأمازيغية: أقدم رافد للثقافة والهوية الجزائرية (السكان الأصليين)، وهي تشكل مقوما أساسيا للثقافة والهوية تم الاعتراف بها في دستور 1996 في ديباجته بالقول «...والمكونات الأساسية لهويتنا وهي الإسلام والعروبة والأمازيغية»⁵.

على أساس هذه المقومات تشكلت الشخصية الوطنية الجزائرية، تلك الشخصية يقول عنها الدكتور محمد العربي ولد خليفة تقوم على "جذع مشترك" تمتد جذوره في إسلام تغلغل في النسيج الاجتماعي، وتتصل الجذور أيضا باللغة العربية التي تتصل بالإسلام، وقد كانت على الدوام مطلبا أساسيا لأغلب فصائل الحركة الوطنية، ودافع عنها وحماها كل جزائري من قلب جرجرة إلى أقاصي الهقار وما بين وادي ميزاب وأعالي الأوراس، ويضيف محمد العربي ولد خليفة بقوله: «لذلك الجذع المشترك خصوصية ظاهرة للعيان وهي اللسان والتراث الأمازيغي الذي يتبناه كل

¹ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دستور 1963.

² - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دستور 1989.

³ - بيان أول نوفمبر 1954.

⁴ - برنامج طرابلس 1962.

⁵ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دستور 1996.

الجزائريين مهما كان اللسان الغالب في مدنها وقراها، فالأمازيغية مثل العربية ليست عرقا ولا فصيلة دم إنهما ثقافة وتراث واحد يظهر بأشكال مختلفة من التعبير تكسبه الحيوية والتجدد»¹.

ثالثا : مشكلة الهوية كتعبير عن أزمة عدم تكامل ثقافي في الجزائر

إن الثقافة ليست معزولة عن الهوية لذلك كانت مشكلة الهوية في الجزائر مرتبطة بالإشكالية الثقافية، مفهوم الثقافة أصولها ومرجعيتها الفكرية أصبحت تشكل إشكالية متجددة في الجزائر، فلقد كانت الهوية موضوع صراع سياسي منذ الأربعينات واتخذت شكلا عنيفا منذ أحداث تيزي وزو 1980 وازدادت عنفا وحدة في عقد التسعينات مع أزمة الإرهاب المسلح الذي عرفتها الجزائر.

نستعرض خطاب الهوية أثناء الحركة الوطنية، وارتباط الهوية الثقافية بالعنف في الجزائر عبر مختلف المراحل التاريخية.

1- خطاب الهوية في ظل الحركة الوطنية

إن الوعي القومي واللغة والدين لم تتبلور كمكونات للشخصية الوطنية إلا داخل حلبة الصراع ضد المستعمر الفرنسي، فالاستعمار بإيديولوجيته الكولونيالية كان عاملا أساسيا في ظهور الهوية الوطنية في الثلاثينيات من القرن الماضي وفي ظل الحركة الوطنية بدأت التناقضات بين مختلف التيارات (وطني - إصلاحي - اندماجي - شيوعي ...) تظهر على الساحة.

كتب ابن باديس " كلمة صريحة "ردا على مقولة فرحات عباس الذي كان من أبرز دعاة الاندماج حين ادعى بأنه " بحث ولم يجد الأمة الجزائرية " -ونفيا لما قاله-، أن للجزائر لغة ودين وتاريخ وتقاليد وهي أمة جزائرية إسلامية ليست فرنسا ولا ولن تكون كذلك ولن تندمج مع فرنسا حتى وإنهي أرادت.²

¹ - محمد العربي ولد خليفة، الازمة المفروضة على الجزائر. (الجزائر: دار الأمة، 1998، 1)، ص 161.

² - بغورة الزاوي، مرجع سابق ص ص 128-129.

أما حزب الشعب الجزائري PPA - الذي أصبح فيما بعد حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD - فإنه لم يجعل من موضوع الهوية قضية مركزية بل اعتبرها مشكلة نظرية وفكرية تهم النخب فقط ، إلى غاية الأزمة البربرية 1949 التي نادت بجزائر جزائرية وليست عربية غير أن مصلحة الأمة عند هذا الحزب كانت تقتضي رفض كل ما هو ضد التوجه الوحدوي والعروبي للجزائر .

سنحاول معرفة مختلف أشكال وامتدادات الصراع الذي عرفته الجزائر بسبب تنوع أبعاد الهوية واختلاف الأسس الثقافية ومنابعها وهي على التوالي:

أ - الامازيغية:

إن البعد الامازيغي ضارب في عمق شمال إفريقيا هذه المنطقة تاريخيا وعلى التوالي عرفت غزو الفينيقيين ثم الرومان فالوندال والبيزنطيين ثم عرفت الفتح الإسلامي وقدم الأتراك وأخيرا الاستعمار الفرنسي .و يعتبر "البربر" هم السكان الأصليين للمنطقة. ويقسم البربر في الجزائر إلى:¹

- القبائل (سكان الشريط الجبلي الشمالي شرقي العاصمة).

- الشاوية (سكان الأوراس).

- بني ميزاب (سكان الواحات شمال الصحراء).

- الطوارق (قبائل جبال الأطلس الصحراوي).

لم يعرف هذا التنوع - إضافة إلى تواجد العرب لاحقا- أي تصدع في الانسجام إلا مع مجيء الاستعمار الفرنسي الذي انتهج سياسة خبيثة وهي سياسة " فرق تسد " لنشر التفرقة بين الجماعات المؤلفة للمجتمع الجزائري²، وكان ذلك من خلال التركيز على بربر القبائل (وحثهم على

¹ - عمر عسوس ، " أزمة الهوية لدى البربر في الجزائر " ،مجلة أبحاث ودراسات في العلوم الإنسانية، العدد 06 ، نوفمبر 2010، ص 50 .

² - عن التمرکز الجغرافي و البنى الاجتماعية والتنظيمية لسكان الجزائر انظر :

بناء هويتهم الخاصة) حيث عمل على نشر التبشير الديني والتعليم الفرنسي في منطقة القبائل حتى أثمرت تلك السياسة بأن ظهرت نخبة تدعو للخصوصية الثقافية وتنبذ الانتماء للعروبة والإسلام .

قبل اندلاع الثورة ظهرت "الأزمة البربرية" في الحركة الوطنية ،حيث شهد حزب الشعب الجزائري سنة 1949 ظهور حس بقيام هوية ثقافية مستقلة (تدعو إلى جزائر بربرية)، الرد كان طرد المعنيين من الحزب على اعتبار أن ذلك عمل - جهوي - يضعف الوحدة الوطنية¹. خفت هذا الاتجاه خصوصا مع اندلاع الثورة الجزائرية التي وحدت - بعقريه مفجريها - جميع التيارات وتمكنت من تحقيق الالتفاف حول الهدف الأول وهو تحرير البلاد .

لكن عند الاستقلال ومع أزمة صيف 1962 عادت القضية البربرية - إذ شهدت البلد حركة انفصالية مسلحة بقيادة المعارض حسين آيت احمد ،أجهضت هذه الحركة وسجن زعيمها ثم فر للخارج ليرجع بعد 1989 ويدخل النشاط السياسي بحزبه ال FFS الذي كان سريرا ومحظورا سابقا. وفي أواخر الستينيات تأسست في فرنسا " الأكاديمية البربرية " و " جماعة الدراسات البربرية " و " اتحاد الشعب الأمازيغي " (وهي بمثابة أدوات للقضية البربرية تطالب بالاعتراف بالأمازيغية وتعارض سياسة التعريب المنتهجة في تلك المرحلة).

وكاستمرار لنشاط هذه القضية وقعت أحداث تيزي وزو 1980 أو ما عرف بالربيع الأمازيغي، وتجدر الإشارة إلى انقسام هذا التيار البربري إلى ثلاثة اتجاهات²:

- تيار متعصب (عنصري النزعة علماني يدعو إلى الرفض للآخر، يتشكل من أعضاء الأكاديمية الأمازيغية بباريس).

Pierre Bourdieu .**sociologie de l'algerie**. (france : p.u.f.1961)

¹ - لتفاصيل أكثر عن ملاسبات الأزمة البربرية انظر :

- عمر بن قينة، **المشكلة الثقافية في الجزائر: التفاعلات والنتائج**. (الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط 2، 2000- القسم الثاني صص 97-117).

- احمد بن نعمان، **فرنسا والأطروحة البربرية الخلفيات الاهداف الوسائل والبدائل**. (الجزائر: دار الأمة ، ط1، 2011).

² - عمر عسوس ، مرجع سابق، ص ص 58-60 .

- تيار معتدل (يتكون من مزدوجي اللغة الذين تكونوا في المدرسة الجزائرية، يري بالأبعاد الثلاث للهوية في الجزائر).

- تيار بربري معرب (ويتشكل من امازيغ متعلمين بالعربية ويعتزون بالإسلام وبلغته ويرفضون طرح الفصل المتعصب، وهم الشاوية).

قدمت الحكومة تنازلات بقبولها لامتداد الهوية الثقافية للجزائر لتشمل البعد الامازيغي إضافة للبعدين الإسلامي والعربي في دستور 1996، وبعد احتجاجات "العروش" التي انطلقت سنة 2000 صدر قرار يقضي باعتماد تدريس اللغة الأمازيغية في المدارس الابتدائية، وتأسيس المجلس الأعلى للأمازيغية وهو مجلس ملحق برئاسة الجمهورية على غرار المجلس الأعلى للغة العربية، لنسجل الاعتراف بها كلغة وطنية رسمية في آخر تعديل دستوري 2016.

ب- الدين الإسلامي:

كان عنصرا موحدا وجامعا للجزائريين أيضا عبر التاريخ، إذ عرفت الجزائر-سابقا- صراعا طائفيا بين السنة والشيعة والخوارج لكن ذلك كان اقل حدة من المشرق، فقد شكلت دولا على أساس مذهبي مثل الفاطميين والرسميين، لكن الغالب هو "إسلام سني مالكي"، وذلك راجع إلى قدرة الإسلام على الاستيعاب والتأثير كونه رسالة عالمية حضارية.

تاريخيا كذلك سادت ثقافة دينية صوفية وطرقية (تعود للعهد التركي)، مع دور الزوايا في إنكاء روح المقاومات الشعبية (ثورة المقراني والحداد والزعاطشة وفاطمة نسومرو الأمير عبد القادر)، ثم تغير مع حركة ابن باديس الإصلاحية (جمعية العلماء الإسلاميين)، ليتطور توظيفه في الحياة السياسية فمن " جمعية القيم " بعد الاستقلال ومعارضة هذا التيار للتوجه الاشتراكي للسلطة ودعوته إلى هوية إسلامية، إلى جماعة بويعللي المسلحة في بداية الثمانينيات إلى بروز ظاهرة "الإسلام السياسي" بعد 1989 واتجاهاته المختلفة.

يمكن القول إذن أن جذور التيار الإسلامي في الجزائر، تعود إلى جمعية العلماء المسلمين محليا كما ساهمت كذلك الحركة الإسلامية العالمية في تكوين مفاهيمه، برز في تجمع الجامعة

المركزية بتاريخ نوفمبر 1982 حين دعا السلطات إلى إجراءات تتوافق مع الشريعة الإسلامية، وينقسم هذا التيار إلى عدة أجنحة بحسب المرجعية التي يستند إليها كل جناح* وهي :

1- **تيار البناء الحضاري**: وهو اتجاه ذو نزعة وطنية يجعل من كتابات مالك بن نبي وابن خلدون وابن رشد أرضية لصياغة مشروعه، يعرف بتيار "الجزائر"، لم يظهر هذا التيار بشكل علني بل انخرط للعمل السياسي تحت الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

2- **تيار الإخوان المسلمون**: وهو امتداد طبيعي لجماعة الإخوان المسلمين المصرية وينقسم إلى قسمين:

- الإخوان المسلمون العالميون: الذين يقرون بولاء تنظيمي للقاهرة.

- الإخوان المسلمون الاقليميون: اللذين يتبنون الفكرة دون الرابطة التنظيمية للمركز. وعبرت عنه كل من حركة المجتمع الإسلامي (حماس) حركة النهضة الإسلامية. سابقا أي قبل دستور 1996.

3- **التيار السلفي**: ويمثل النزعة التقليدية في التيار الإسلامي ويستخلص مفاهيمه من منظور الحركة الوهابية، انخرط للعمل السياسي باسم الجبهة الإسلامية للإنقاذ سابقا.

يركز هذا التيار على الهوية الإسلامية للجزائر وإقامة " الدولة الإسلامية "، وهو تيار موجود في حلبة الصراع السياسي في الجزائر منذ الحركة الوطنية ، وكان طرفا في أزمة العنف الدامية التي عاشتها الجزائر حيث التجأ إلى العنف المسلح- بعد توقيف المسار الانتخابي في 1991 - أزمة كادت أن تعصف بالوحدة الوطنية .

* يلخص "حميدة عياشي" تيارات ومشايخ الحركة الإصلاحية في الجزائر في فصل بعنوان "المسار الصعب للإسلاميين" فيما يلي: "الشيخ العرابوي (الإمام المعارض)، الشيخ مصباح مبارك، عبد اللطيف سلطاني (الزيتوني الراديكالي)، مالك بن نبي (الفدائي المنعزل)، عباسي مدني (دولة إسلامية بمفهوم براغماتي)، علي بن حاج (المثالية الثورية)، محفوظ نحاح (رجل الشوروقراطية)، جاب الله (الوجه الإنتلجنسي للحركة)، مصطفى بويعل (الوجه الجزائري للإسلام المسلح).

- المرجع: حميدة العياشي ، الإسلاميون الجزائريون بين السلطة والرصاص . (الجزائر: دار الحكمة، 1992).

ج- العربية:

قدوم العرب للجزائر كان على ثلاث مراحل¹:

- الفتح الإسلامي في القرن التاسع (عقبة بن نافع) .

- هجرة قبائل بنو هلال وبنو سليم في القرن الحادي عشر .

- هجرة العرب من الأندلس بعد سقوطها في القرن الخامس عشر .

حضيت اللغة العربية بنفوذ كبير كونها لغة الإسلام المقبول لدى الجميع، إلى درجة أن قامت دول أمازيغية (كالرستميين أو الحماديين) لكن اللغة السائدة أو لغة الدولة هي اللغة العربية ، لم تطرح المشكلة في السابق بسبب ظاهرة الجهاد التي وحدت الكل .عربا بربرا وتركيا لصد الخطر الأوربي .

بدأ صراع الهوية بين كل من العرب والبربر ودعاة الإسلام كحل وسط وكذلك الاندماجين في عهدا لاحتلال الفرنسي الذي انتهج "سياسة فرق تسد" وأصبح البربر يرون أن التعريب يختفي في جبة الإسلام. وجدير بالذكر أنه إثناء الثورة التحريرية فإن فكرة "الجهاد" أصبحت عنوانا للهوية، لكن ذلك كان مؤقتا فأزمة صيف 1962 هي صراع هوية يختفي وراء صراع سلطة ، تلك الأزمة التي انتهت بفوز التيار العروبي (بن بلة وبومدين) وانتهاج سياسة التعريب حيث اللغة العربية هي اللغة الرسمية منذ أول دستور في 1963.

بالنسبة للغة فهي من أهم المنافذ المستخدمة من أجل الولوج إلى عمق الثقافة والبيئة الاجتماعية وصياغتها وتوريثها ،في الجزائر والعالم العربي نجد نوعين من اللغة "الفصحى" و"العامية" لكن عمليا هناك اللغة "الفرنسية" وخاصة في الإدارة ،العربية الفصحى واللغة الأمازيغية بتفرعاتها الجهوية المختلفة ،واللغة الدارجة (وبالنسبة للسان الأمازيغي فالإشكال المطروح هو هل هي لغة أم لهجة بسبب افتقارها إلى نظام هجائي وقواعد نحوية وصرفية موحدة بين جميع مستخدميها : طوارق شاوية قبائل ميزاب ...) .

¹ - عمر عسوس ، مرجع سابق، ص 50.

هذا التنوع اللغوي سبب مشكل صياغة هوية وثقافة المجتمع الجزائري. إذ عرفت الجزائر

كذلك

الصراع بين "الفرנקفونيين"¹ و"المعربين" وبالأخص في دواليب النظام^{*}، حيث انقسمت النخبة بشأن المسألة اللغوية - فحسب الدكتور عبد الناصر جابي - إن المسألة مرتبطة بنوع الاستعمار الاستيطاني الذي تعرضت له الجزائر خلافا لكل الدول العربية، الاستعمار الذي عمل على تحطيم البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع التقليدي وبناء مجتمع كولونيالي عصري إذ فرض ازدواجية في كل الميادين، مجتمع أوربي ومجتمع أهلي، تكفلت المدرسة الفرنسية بإنتاج "متقف مفرنس" لوظائف مرتبطة بالحالة الاستعمارية وبالمقابل عملية تكوين موازية للأهالي لإنتاج "متقف معرب" لوظائف تقليدية، استمر هذا الانعكاس بعد الاستقلال فساد منطق الانقسام بدل التكامل وأصبح اهتمام المعربين بمواضيع التاريخ والدين والمرأة (وهي جوانب ثقافية وإيديولوجية) أما المثقف المفرنس فاهتم بقطاعات الصناعة والإدارة والتسيير.

يلخص الدكتور عبد الناصر جابي نتيجة هذه "الانقسامية" وهي ضعف أداء الدولة وفقدانها للتجانس بين مختلف مؤسساتها والتنافس الشرس بين مختلف النخب للتوسع وتدعيم المواقع وصراع متعدد الأشكال داخل وخارج مؤسسات الدولة، فأصبحت مجالات المحيط الإعلام والمدرسة ميادين صراع فظهرت أحزاب الإسلام السياسي من جهة وأحزاب التيار الأمازيغي (علمانية وفرانكفونية) من جهة أخرى، مما فرض على المشرع التدخل لمنع استعمال هذه الثوابت الوطنية والدينية في دستور 1996².

¹ - حول الفرانكفونية في الجزائر انظر :

- وليد الزيدي ، السياسة الفرانكفونية في الوطن العربي. (الأردن: دار أسامة، ط1، 2010).

- عبد الله ركيبي، الفرانكفونية مشرقا ومغربا. (الجزائر: دار الأمة، 1993).

- عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر. (الجزائر: دار الأمة، ط1، 1999).

^{*} - مثال ذلك هو تجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية سنة 1993 .

² - عبد الناصر جابي ، الدولة والنخب دراسة في النخب، الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية. (الجزائر: منشورات

الشهاب، 2008)، ص ص 13-22.

2- الهوية والعنف في الجزائر:

بناء على التطور الذي عرفته محددات الهوية السابقة (إسلام ، عربية وامازيغية) يبدو جليا أنه خلال التجربة الجزائرية ظلت الهوية مرتبطة بالعنف سواء تعلق الأمر بالمرحلة الاستعمارية أو بمرحلة الدولة الوطنية فيمكن القول إذن أن العنف هو " سلاح الهوية" (مثلا الجماعات الإسلامية). وحتى لو رجعنا إلى العهد الاستعماري الذي حاول طمس الهوية الجزائرية، فإن الرد كانا متمسك بشدة بالهوية الوطنية إلى درجة العنف¹، وهو عنف مشروع -الذي عبرت عنه ثورة أول نوفمبر 1954 .

إن ما قدمه ابن باديس أثناء الحركة الوطنية (الإسلام - العربية -الجزائر) قد أصبح بديها عند قطاعات غالبية من الشعب الجزائري لكن السنوات الموالية للاستقلال كان لها أن تحدد إلى أي مدى سيصمد هذا الطرح ؟ لقد عرفت إشكالية الهوية في حالة الجزائر ثلاث مراحل كبرى:²

1 - الهوية المرتبطة بحرب التحرير (عبر عنها بيان أول نوفمبر 1954).

2 - الهوية المرتبطة بالحق في الاعتراف بالاختلاف كحالة البربرية والامازيغية.

3 - الهوية المرتبطة بالحق في المعارضة (خطاب الحركات الإسلامية).

وفي كل تلك المراحل كان العنف ملازما للصراع حول الهوية ، وحتى الدولة الوطنية بعد الاستقلال حسب " سليمان مظهر" ونظرا لاعتبارات سياسية وإيديولوجية ولظروف تاريخية خاصة، عملت على صناعة مجتمع على شاكلتها ولو كان ذلك بالعنف (مظاهر عنيفة كالثورة الزراعية وترييف المدينة وغياب سياسة تربية واضحة)³.

وإذا كان عجز السلطة عن حل مشكلة الهوية كجزء من المشكلة الثقافية في الجزائر قد أدى إلى العنف المادي والرمزي في بداية الثمانينيات، ثم العنف المسلح للجماعات الإسلامية في

¹ - بغورة الزاوي .مرجع سابق ،ص 127.

² - نفس المرجع. ص 137.

³ - انظر .(thalaedition ,1997). slimane medhar.la violence sociale en algerie .alger

التسعينيات، فإنها عملت في الكثير من الأحيان على تذكية الصراع بين مختلف الأطراف والتيارات (عرب/بربر - محافظين/علمانيين - يساريين/ليبراليين - متفرنسين/معربين) بالأخص في السبعينيات وأدخلت أبعاد الهوية حتى في الصراعات الشخصية حول السلطة، وإعادة إنتاج نفس الأزمات وهو ما عبرت عنه مختلف السياسات المنتهجة لإدارة المسألة الثقافية كما سنتطرق إليه في المحور الموالي .

رابعا: أثر السياسات الثقافية في تحقيق التكامل الثقافي في الجزائر

تجدر الإشارة إلى أن الهدف من السياسات الثقافية التي انتهجت في الجزائر كان أحياء الهوية الجماعية والثقافية وتعبئتها وإعادة تنشيط وتوجيه عناصرها وبقاياها وتحديث مقوماتها الشخصية الوطنية وهو عمل ارتبط في جل لحظاته ببناء الكيان السياسي للأمة ومأسسته وفق منظومات ونظم إستراتيجية مناهضة للممارسات والأيديولوجيا الكولونيالية التي تعاونت وتطافرت تطبيقاتها ورؤاها على تدمير بناء وإنكار وجوده.¹

حيث يرى الباحث " عمار بلحسن " بأن هناك ثلاث ثوابت أساسية في الخطاب السياسي الرسمي حول الثقافة :

1- ارتباط الثقافة باللغة والأصالة أي الاتجاه نحو التعريب .

2- ارتباط الثقافة بالتغير والثورة .

3- ارتباط الثقافة بالتحديث العلمي والتقني.

ويرى كذلك أن الثورة الجزائرية قد أجهدت نفسها في توحيد التنوعات الإيديولوجية والسياسية الموروثة عن تعددية الحركة الوطنية (1912-1954) في خطاب سياسي راديكالي وعنيف رمزيا ، كانعكاس للعنف الوطني والثوري لحل المسألة الوطنية ، كما « ستحاول الدولة الوطنية ولو بكثير من الجهد والعناية والبراغماتية صياغة خطاب سياسي حول الثقافة ... الموروثة في نسق

¹ - عمار بلحسن " المشروعات والتوترات الثقافية حول الدولة والثقافة في الجزائر " في كتاب : الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. (بيروت: م د و ع، ط2، 1999)، ص 459.

إيديولوجي وطني اجتماعي موحد وتحديثي»¹ ، سنحاول التطرق إلى تلك المبادئ على المستوى النظري (أي ما ورد في مختلف المواثيق الوطنية) وأثارها ميدانيا ،أي على مستوى التطبيق .

1- على المستوى النظري، الثوابت والمبادئ:

أ- **التأكيد على أهمية التعليم:** حيث نصت المادة 8 من دستور 1963 " التعليم إجباري والثقافة للجميع دون أي استثناء أوتمييز"²، وأكد ذلك برنامج طرابلس 1962 "...إن الثقافة الوطنية ستكون وطنية ثورية وعلمية"³، والميثاق الوطني 1976 " إن الشرط الأساسي لإحداث أي تغير ثقافي يكمن بالدرجة الأولى في محاربة الأمية ولتحقيق هذا الغرض يجب نشر التعليم ليشمل كل المواطنين رجالا ونساء"⁴، ونشير هنا إلأن برنامج الرئيس هواري بومدين قد كان أكثر طموحا .

ب- **ضرورة استرجاع الثقافة الوطنية:** وتعزيز مقوماتها المرتبطة بالحضارة العربية الإسلامية ،فقد أكد ميثاق الجزائر 1964 " إن الثقافة ستكون شعبية " (أي ليست ملكا للطبقة الميسورة) ، " ثورية " (يجب أن تساعد على تنمية الوعي الثوري) و " علمية " (في طرح أهدافها ومنهجها)، ولأجل ذلك وجب إصلاح نظام التعليم على جميع المستويات بخلق مدرسة جزائرية وطنية مختلفة عن المناهج الموروثة عن المدرسة الاستعمارية دون إهمال لتجارب البلدان الأخرى⁵، بمعنى آخر جزارة المدرسة الجزائرية.

ج- **استرجاع اللغة العربية :** فدستور 1963 أكد في المادة 05 "إن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للدولة"⁶، و العربية - في نية واضعيها - ليست مسألة عرقية بقدر ماهي مسألة ثقافية ،فهي طريقة للحياة ووسيلة للتعبير عن الاشتراكية أو بالأحرى هي وسيلة لتحقيق الوحدة الوطنية⁷، كما أن انتهاج " سياسة التعريب " كههدف استراتيجي كان يهدف إلى التخلص من التبعية

¹ - نفس المرجع ،ص 470 .

² - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ،دستور 1963. مرجع سابق .

³ - برنامج طرابلس 1962.

⁴ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الميثاق الوطني 1976.

⁵ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ميثاق الجزائر 1964.

⁶ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ،دستور 1963، مرجع سابق.

⁷ - صالح فيلاي ،"إشكالية الثقافة في الجزائر المبادئ الأساسية والايديولوجيا الممارسة"، نفس المرجع السابق ،ص (447)

الثقافية واللغوية ، ورد في الميثاق الوطني 1976 " إن العربية تمثل عنصرا أساسيا في الهوية الثقافية للشعب الجزائري " ¹، المادة 03 من دستور 1976 " اللغة الوطنية الرسمية هي اللغة العربية " ²، أطلقت الثورات الثلاث "زراعية صناعية وثقافية " ،وهو ما أكدته كذلك الميثاق الوطني 1986 بقوله إن الهدف هو " إعداد الإنسان وتكوين مواطن صالح متشبع بأخلاقيات الإسلام مقتنع بتاريخه وبالنهج الاشتراكي " ³.

على مستوى المبادئ كذلك فإنه دستور 1996 قد أضاف البعد الأمازيغي كأحد عناصر الهوية والثابت الوطنية في ديباجته ، كما أن التعديل الدستوري الأخير 2016 قد جعل من الأمازيغية لغة وطنية ورسمية ⁴.

2- على المستوى التطبيقي، الممارسات والإيديولوجيات:

يمكننا رصد الآثار المتنوعة لتلك السياسات الثقافية لمعرفة دورها في إرساء تكامل ثقافي ميدانيا:

في السنوات الأولى بعد الاستقلال (الستينيات والسبعينيات) نجحت سياسة ديمقراطية التعليم ومجانيته، واسترجعت اللغة العربية مكانتها نظريا ، تم إصلاحاً وجزأة برامج التعليم وفق ما ينسجم مع إيديولوجية النظام (وبالأخص في مواد التعليم الإنسانية :دين ،تاريخ ،سياسة واقتصاد) وأصبحت اللغة العربية هي لغة التعليم الأساسية في جميع المستويات بالإضافة إلى معاهد التعليم الأهلي التابعة لوزارة الشؤون الدينية . تغيرت القيم الاجتماعية كذلك بإدخال بعض مفاهيم الاشتراكية ميدانيا، وكانت سنة 1971 بداية لتعريب الإدارات والتأكيد على ذلك في كل المستويات .

من الآثار البارزة، الازدواجية الثقافية والصراع على مستوى النخبة المتعلمة حيث اشتد النقاش بين المفرنسين والمتعربين حول اللغة ،هل يمكن استبدال اللغة الفرنسية كلغة تدريس واقتصاد وإدارة باللغة العربية؟ إنحجج الطرف الأول هي ضرورة اللغة الفرنسية لأنها متطورة وتصلح للعصر

¹ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الميثاق الوطني 1976، مرجع سابق .

² - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ،دستور 1976.

³ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الميثاق الوطني 1986.

⁴ - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ،التعديل الدستوري 2016 .

كلغة علم وتقانة، أما حجة الطرف الثاني فهي أن الفرنسية تشكل خطرا على "الاستقلال الثقافي"، ورغم أن هذا الصراع كان نخبويا، لأنه على الصعيد الشعبي يوجد شعب لا يتقن الفرنسية ولا يتقن الفصحى يمكن القول بأنه كان ولا يزال يشكل جزء من الصراع الإيديولوجي بين المعربين والمفرنسين¹.

انعكست تلك الآثار أكثر في فترة الثمانينيات والسبعينيات إذ "تبدو حركة الدولة لتوحيد اللغة والثقافة متعارضة مع وضعية تعدد لغوي، فوجود عربية وقبائلية أو أمازيغية دارجة إضافة إلى الفرنسية، يكبح إرادة ثقافة عربية وطنية ويخلق توترات مصحوبة بردود فعل مجتمعية"². إن مطلب "ثقافة وطنية عربية" المحتوى والتوجه قد واجه في الواقع الجزائري من جهة ووجود "ثقافات جهوية وشعبية" وأدواتها من لهجات ولغات دارجة وموروث شفهي من جهة أخرى... هذه الأوضاع أفرزت حركات جماهيرية خارج الدولة للمطالبة باحترام الخصوصيات اللغوية والثقافية والاختلاف الثقافي، تجسدت في حركة ربيع القبائل سنة 1980 ومجموعات الثقافة البربرية والأمازيغية.

من الآثار كذلك "ظهور قوى اجتماعية وفكرية جديدة مثل المجموعات الإسلامية المنفصلة عن الدين والمؤسسة الرسمية، وتشكل مجموعات مثقفة خارج المركز السياسي الوطني كمجموعات الثقافة الجهوية، وتعاظم أجيال المتعلمين والمتقنين المعربين تعكس ديناميات ثقافة واستقطابات فكرية وإيديولوجية بديلة للدولة وخارج مجال سلطتها"³.

ابتداء من 1989 وبعد إقرار التعددية السياسية والتخلي عن النهج الاشتراكي، دخلت الجزائر في أزمة عميقة متعددة الأوجه صاحبها موجة عنف شديد ورغم تعدد خلفيات تلك الأزمة سياسيا اقتصاديا وأمنيا واجتماعيا فإن البعد الثقافي كان حاضرا بقوة حيث طرحت الأحزاب السياسية العديد من مشاريع المجتمع يستند كلا منها إلى الأسس ومنطلقات ثقافية كامتداد للصراعات الثقافية والإيديولوجية السابقة التي عرفت الجزائر في الستينيات والسبعينيات، ويمكن القول أن دستور 1996 قد حدد بوضوح مبادئ الهوية الثلاث (إسلام - عربية - أمازيغية) كما أبعد هذه العناصر

¹ - صالح فيلاي، مرجع سابق، ص 447.

² - عمار بلحسن، مرجع سابق، ص 474.

³ - نفس المرجع، ص 475.

عن حلبة الصراع فمنع تأسيس الأحزاب على هذه الأسس ، وهي خطوة ايجابية نحو تكامل اجتماعي ثقافي وسياسي كانت الجزائر في أمس الحاجة إليه لعودة الاستقرار للبلاد.

خاتمة :

من خلال هذه الورقة نخلص إلى أن المسألة الثقافية في الجزائر ارتبطت بقضية الهوية ، وكانت محل صراع وصل إلى درجة العنف في الكثير من الأحيان، فقد بنيت السياسة الثقافية بعد الاستقلال على أرضية منقسمة إيديولوجيا وثقافيا وهي امتداد لمرحلة ما قبل الاستقلال (الحركة الوطنية وإيديولوجية جبهة التحرير الوطني).

ونتيجة لازدواجية التعليم فإن النظام لم يوفق في تطوير وعي ثوري، وبدلاً من ذلك أدب إلى خلق تناقض إيديولوجي بين أفراد الجيل الجديد وزاد من حدة العداوة بين المعربين والمفرنسين، فعوض أن يتحد الطرفان ضد عدوهم المشترك وهو الجهل والتخلف الاجتماعي والاقتصادي فقد استغل هذا الوضع في صراع الأشخاص على السلطة.

لم يجد الثراء اللغوي والثقافي الذي عرفته الجزائر سلطة داعمة ساهرة على توجيهه وقولبته باتجاه البناء والتجميع، السلطة لم تكن حاضرة سوى لإدارة الصراع، وكيفية توليد ميكانيزمات هوية وإعادة إنتاج نفس شروط الصراع ، بهدف ضمان الاستمرارية حتى وإن أدى ذلك لارتهاق الأمة بماضيها وحاضرها ومستقبلها، هذا الارتهاق الذي برزت آثاره واضحة من خلال ظاهرة العنف السياسي والاجتماعي التي طبعت المجتمع الجزائري منذ الاستقلال، و التي بدأت بأزمة صيف 1962 و الصراع على السلطة، واستمرت مع أحداث أكتوبر 1988، ثم تجددت بعنف أكبر سنة 1991 بعد إلغاء المسار الانتخابي، وسيبقى هذا العنف هاجسا متجددا ما لم تعالج أسبابه الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية.

إن الحل يكمن في نقاش حقيقي بين مختلف الأطر التي تشكل المجتمع الجزائري ، تترجمه سياسات ثقافية فعالة من خلال المكاشفة الصريحة و الكاملة، و الإقلاع عن الأساليب الديماغوجية ولغة الخشب في تأطير مشاكل الأمة والمجتمع، و مراجعة علمية دقيقة للتاريخ، باعتباره يشكل بعدا لهوية المجتمع، هذا التاريخ الذي أصبح مغيبا أو مستغلا من كل الجماعات،

إلى درجة أنه كان سببا في تغذية العنف الاجتماعي والسياسي الذي عاشته الجزائر منذ الاستقلال. إنسبب الصراع المفضي إلى هذا العنف هو الطابع الأحادي للتصور السائد تجاه هذه الثقافة من خلال التأكيد على أحد تلك المقومات فقط، إما الإسلام وحده أو العربية أو الأمازيغية وحدها فقط.... بمعنى "الإقصاء" الذي أدب إلى العنف في الكثير من الأحيان وعدم التواصل والانسجام أو ما يعبر عن - لا تكامل ثقافي - .

يمكن الحل كذلك في تصور "ثقافة مشتركة" بين جميع الجزائريين وليس إنتاج التفرقة والنزاعات الجهوية كما يجب الخروج من ثقافة الإقصاء والتمهيش والإنقسام إلى ثقافة الحوار واحترام الاختلاف وتأسيس قيم العيش معا، في هذا الإطار نرى أن :

- **الدين الإسلامي:** هو الإطار الحضاري للهوية الوطنية، لقد نص بيان أول نوفمبر 1954 على « إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ضمن المبادئ الإسلامية »، كما اتفقت دساتير الجزائر على أن الإسلام هو دين الدولة (مع احترام الأديان الأخرى وحرية المعتقد) وهو تجسيد للخلفية الحضارية للأمة حتى اشترط في المرشح لرئاسة الجمهورية أن يكون مسلما¹، وفي هذا الإطار نسجل التزام المؤسسة التشريعية بالقواعد العامة المتعلقة بالأحوال الشخصية وفق تعاليم الإسلام (الأسرة، الزواج ، الطلاق ، البنوة ، الميراث...) ووجود المجلس الإسلامي الأعلى كمؤسسة استشارية وهو ما يؤكد على المرجعية الإسلامية للبلاد .

- **الاعتزاز بالأمازيغية:** والعناية بها لا يعني مطلقا الجهوية ونزعة الأقلية للانزواء والتميز ففي كل جزائري شيء من الأمازيغية (الأهل يتشابهون في الكثير ويختلفون في القليل من العادات والقيم وهي خصوصية عن غيرنا من الشعوب)، إن كلا من الأمازيغية والعروبة والإسلام تشكل في الجزائر " جذعا مشتركا" - حسب تعبير الدكتور محمد العربي ولد خليفة- ، ويفترض أن العربية ليست خصما للأمازيغية فكلاهما عانى من الاضطهاد الكولونيالي أكثر من قرن لانتصاقهما بالهوية والشخصية الوطنية² .

¹ - الحسن بركة، إبعاد الازمة في الجزائر (المنطلقات، الانعكاسات ، النتائج) . (الجزائر: دار الأمة، ط1، 1997)، ص ص

² - محمد العربي ولد خليفة. مرجع سابق ، ص 161 .

- وبالنسبة للغة العربية : فعمل أحسن تعريف لمكانة ودور اللغة العربية هو ما ورد في المادة 02 من قانون "تعميم استعمال اللغة العربية" (تم تجميده في 1993) والذي نص على أن اللغة العربية هي مقوم من مقومات الشخصية الوطنية الراسخة وثابت من ثوابت الأمة ، يجسد العمل بها مظهرا من مظاهر السيادة واستعمالها من النظام العام¹، الملاحظ أن اللغة الفصحى هي كذلك أصبحت مهددة بسبب الإهمال واستعمال العامية المطعمة بالفرنسية (تهميش اللغة العربية الفصحى وعدم توطيد اللغة الأمازيغية) ، وهذا خطر قد يؤدي إلى تفكك الهوية .

أخيرا إن التكامل الثقافي المنشود في الجزائر يتطلب سياسات ثقافية تعمل على استثمار هذا التنوع لخدمة الفكر والمعرفة والثقافة، ولأجل تماسك كينونة المجتمع وخدمة الوحدة الوطنية وحماية الأمن القومي.

¹ - الحسن بركة، مرجع سابق ، ص 132.